ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مؤسسات العلاج في المغرب والأندلس في العصر الوسيط*

Treatment Institutions in Morocco and Andalusia in the middle Ages

د.محمد حقي ~~~~~~~~~~

Dr.Hakki mohamed

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان-المغرب

haqqim@hotmail.com

صص31-42

SAMMURY: The present article focuses on the issue of hospital institutions in Morocco and Al-Andalus in the middle Ages. The analysis of the data collected had shown that they had undergone gradual developments. They had gone from closed and more private areas to the mansions of doctors and sanatoriums of palaces in public areas. Those latter used to be more open and easily accessible in the form of shops across the streets and markets of the city from the fifth to the eleventh century. In the following century, public hospitals named Maristane emerged to be reserved for foreigners, the poor and the alienated. In this way, the Moroccan-Andalusian society managed to maintain and treat both its members and its guests. Certainly, the development of those institutions left very profound traces on the architecture of the Moroccan-Andalusian city and reflected a very advanced level in the expansion of medicine.

Key words: hospital institutions; Morocco; Al-Andalus; the middle Ages.

تقديم: تظهر دراسة تاريخ الطب في المغرب والأندلس في العصر الوسيط أن هناك إقبالا واضحا على علاج الأمراض سواء باللجوء إلى الطب العلمي أو طب المتصوفة أو العلاج الطبيعي أو الطب الشعبي الذي يفرض هيمنته على الساحة.وبناء على ذلك، فقد تعددت أماكن العلاج حيث يلتقي الطبيب بمريضه؛ بالرغم من غلبة طابع الخصوصية على معظمها، في أماكن مختلفة. ونظرا لكون الطب العلمي أكثر هيكلة وبروزا للعموم فنخصص موضوع هذا المقال للأماكن التي يمارس فيها مهامه. وبعد دراسة المادة المتوفرة؛ على ندرتها، ظهر أن أماكن العلاج تنقسم إلى أماكن خاصة تشمل منازل الأطباء ودكاكينهم في الأسواق ثم عيادات القصور، وأماكن عامة تمثلها المارستانات. فما هي خصوصية كل نوع؟

* تاريخ استقبال المقال: 2018/01/28، تاريخ المراجعة: 2018/03/15، تاريخ القبول: 2018/04/29

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

1- أماكن العلاج الخاصة

1-1- منازل الأطباء: تظهر المادة التاريخية المتوفرة أن هذا النوع من أماكن العلاج قديم الوجود في الأندلس إذ ارتبط ببدايات الطب في القرن 3هـ/9م مع تباين واضح وتدرج في ظهور العناصر المكونة لها. وإذا كان عدد مهم من الأطباء يعمل في خدمة الأمراء والملوك، فإن العدد الأكبر منهم ظلبعيدا عن القصور، لذلك يفترض أن أغلبهم قد اتخذ أماكن خاصة لاستقبال المرضى وعلاجهم.

تعتبر المنازل أقدم أماكن العلاج في المغرب والأندلس وأكثرها دواما واستمرارا إذ ظلت حاضرة طيلة فترة العصر الوسيط. فقد فتح كثير من الأطباء أبواب منازلهم لاستقبال المرضى وعلاجهم، بل إن بعضهم احتفظ بالمرضى في بيته لتمريضهم. وقد جمعنا إشارات كثيرة تهم الموضوع. ففي نهاية عهد الأمير عبد الله (275-300هـ/889-912م) وبداية عهد الناصر (300-350هـ/912-960م) كان الطبيب ابن ملوكة يعالج المرضى ووضع على باب داره ثلاثين كرسيا لقعود الناس المنتظرين لدورهم[1]. ولما مرض الطبيب يحي ابن السمينة القرطبي (ت315هـ/926م) بالنقرس لازم بيته فجعل الناس من مختلف الطبقات يزورونه قصد العلاج[2]. وفي القرن الخامس الهجري، كان ابن الحناط (ت437هـ/1044م) مقصودا في بيته للعلاج[3]، وتخلى ابن البغونش الطليطلي (ت446هـ/1154م) عن خدمة بني ذي النون ولازم بيته[4]، حيث يفترض أنه كان يمارس مهنته ويستقبل المرضى. ولما تعلم إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب المجري الطب (ت506هـ/1112م) "قعد للعلاج بطنجة"[5]، وتحتمل هذه الإشارة أحد أمرين إما العلاج في منزله أو في دكان في السوق. وأورد الونشريسي نص فتوى تتعلق بشخص ترك مملوكة له عند يهودي للعلاج فضاعت[6]، مما يؤكد أن الأطباء يسمحون للمرضى بالبقاء في بيوتهم للمواظبة على علاجهم.

كل الإشارات أعلاه تثبت حقيقة واحدة تتمثل في كون الأطباء حتى القرن 5هـ/11م قد جعلوا من بيوتهم أماكن لاستقبال المرضى وعلاجهم. ونعتقد أن عدم توفر إشارات حول ما تبقى من الفترة الوسيطية لا يفيد توقف المنازل عن لعب هذا الدور بل؛ ربما، كانت نتيجة إغفال المصادر وظهور أماكن أكثر انفتاحا وشهرة غطت على دور المنازل.

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

1-2- دكاكين الأسواق: في نهاية القرن 5هـ/11م، بدأ يظهر نوع جديد من أماكن العلاج ونقصد به دكاكين الأسواق. وتختلف عن المنازل بكونها أكثر انفتاحا في وجه المرضى بمن فيهم الغرباء، وتجمع في أحيان كثيرة بين بيع الأعشاب وإعداد الأدوية والمشارب (صيدلية) والفحص. وقد يكون هذا التطور مؤشرا آخر على تزايد دور الطب العلمي في العلاج وتزايد الإقبال عليه، ولكنه قد يكون أيضا رد فعل على تجاهل وإهمال ملوك الطوائف للأطباء وبحث هؤلاء عن مصدر آخر للعيش. وقد أشار أحد الباحثين إلى أن الأطباء "اتخذوا دكاكين لهم في الشوارع والأسواق"[7]، وذكر السقطي وجود دكاكين متخصصة في توفير الأدوية وتركيبها للمرضى[8]. ومن الأطباء الذين كانت لهم دكاكين لبيع الأعشاب نذكر يوسف بن فتوح العشاب القرشي (ت562هـ/1166م) في فاس[9]، وأحمد بن محمد بن مفرج الإشبيلي ابن الرومية (ت637هـ/1239م) الذي كان له "دكان متسع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية والنفع بها"[10]، وكان الناس يرتادونه لحسن علاجه وثقته ودينه[11].

وفي القرن 8هـ/14م ازدادت أهمية الدكاكين، وكانت سبتة من أكثر المدن احتواء عليها، حيث كان لكثير من أطبائها حوانيت خاصة بهم. ومنهم الطبيب المشهور محمد بن مقاتل (ت764هـ/1363م) وكان"حانوته بالصفاح من مقبرة زجلو أمام المسجد الكبير"[12]، ومحمد الشريشي (ت771هـ/1370م) "وحانوته برحبة الوزان من سبتة"[13]، ومحمد الجياني (ت789 أو 790هـ/1389م) "وكان حانوته بالسوق الكبير يقصده فيه أهل العلل وأصحاب الأمراض"[14]. ولا تقل مدينة فاس أهمية عن سبتة في هذا المجال، ف"معظم دكاكين الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين" كما يؤكد الوزان، وتباع بها الأدوية التي يعدها الأطباء في منازلهم، ويشغلون بها عددا من المستخدمين والمساعدين[15].

لقد صارت دكاكين الأطباء أو الصيادلة الأطباء المظهر الطبي البارز في مدن المغرب والأندلس منذ نهاية القرن 5هـ/11م، واستقطبت كثيرا من زبناء دور الأطباء مما دفعهم إلى التنافس في الظهور فازداد عدد الدكاكين وكثر المشتغلون بالطب (مساعدون ومستخدمون).

3-1- مصحات القصور: انتشر في المنطقة نوع ثالث من المشافي الخاصة ونعني بذلك مصحات القصور الأميرية. وقد أظهرت الأبحاث أن الملوك سيطروا على القسط الأكبر من خدمات الطب العلمي، بل إن نموه كان بمبادرة منهم. ولذلك فليس من الغريب أن يهتموا بإنشاء أماكن علاج داخل قصورهم. ولحسن حظنا فالمصادر توفر إشارات مهمة تساعد على تسليط الضوء على الموضوع بالرغم من أنها بعيدة عن أن تستجيب لحاجة الباحث في الموضوع. فمنذ عهد عبد الرحمن الثاني الأموي (206-239هـ/821-853م) كانت في قصر قرطبة خزانة خاصة بالطب كما يثبت ابن حيان حين يقول: "فتقدم الأمير إلى نصر بإدخال الحراني إلى خزانة الطب وتمكينه مما يريد من أخلاط دوائه ليقيمه على حده"[16]. فهذه الخزانة كما ترى بمثابة صيدلية خاصة بالأمراء الأمويين وظهورها يوافق تاريخ ظهور الطب بالأندلس[17]. وقد تطورت في عهد الحكم المستنصر (850-866هـ/960-977م) الذي أسند إدارتها لطبيبه الخاص أحمد بن يونس بن أحمد الحراني (ت في عهد هشام المؤيد) فنظمها وعين فيها اثني عشر صقلبيا لطبخ الأشربة والمعاجين[18]، وتمكنت من توفير الدواء والعلاج لأهل القصر بل وزع جزء منه على الفقراء والمساكين[19]. وكان في إدارة الأمويين منصب خاص بها يسمى "خدمة خزانة الطب والحكمة" ويتولاها أحد الأطباء العارفين[20]. وهذه الخزانة وإن كان النص يقتصر على ذكر توفيرها الدواء فهي أيضا توفر العلاج خاصة وأن من يتولاها هو كبير أطباء القصر.

وتختفي الأخبار عن هذا النوع من المصحات حتى العصر الموحدي؛ وخاصة في عهد يعقوب المنصور الموحدي(580-594هـ/1185-1199م) الذي عين الطبيب أبا يحي ابن قاسم الإشبيلي على رأس "خزانة الأشربة التي يأخذها"[21]، وسيخلفه على رأسها ابناه في عهد المستنصر الموحدي[22]. وكلف بنفس المهمة طبيب آخر يسمى أبا جعفر ابن الغزال المريي الذي "يعتمد [الخليفة المنصور] عليه في الأدوية المركبة والمعاجين ويتناولها منه"[23]. وتؤكد هذه الإشارات المتوفرة من عصرين مختلفين ومتباعدين استمرار تقليد اتخاذ العيادات داخل القصور الأميرية خاصة في أوقات الاستقرار السياسي والحضاري، لذلك نرجح أن ملوك الطوائف؛ وخاصة في الإمارات الكبيرة وعلى رأسها إمارة بني عباد في إشبيلية التي سعت إلى الظهور بمظهر الزعيمة التي

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

ورثت الأمويين في كل شيء، لن يتجاهلوا هذا الأمر، ونفس الشيء ينطبق على المرينيين والنصريين. فمن المفترض أن لكل هؤلاء فرقة من الأطباء تعمل في خدمتهم وتخضع لنفس التنظيم وتتوفر على عيادة لممارسة مهامها.

مكنت دراسة العيادات الخاصة من الخروج ببعض الملاحظات أهمها:

- كون منازل الأطباء أول مجال للعلاج ارتبط بظهور الطب في الأندلس واستمر في احتكار المهمة حتى القرن 5هـ/11م عندما تراجع دون أن يختفي.
- ظهور دكاكين وحوانيت الأسواق منذ القرن 5هـ/11م وتحولها إلى أهم أماكن العلاج حتى نهاية العصر الوسيط.
- اتخاذ الملوك والأمراء لصيدليات خاصة منذ القرن 3هـ/9م تجمع بين العلاج وإعداد الدواء.
- جمع العيادات الخاصة بكل أصنافها بين وظيفتي الصيدلة والتطبيب.
- تزايد العيادات الخاصة خاصة الدكاكين يؤكد تزايد الإقبال على الطب العلمي واتساع قاعدة المقبلين على خدماته وانفتاحه على العامة.

2- أماكن العلاج العامة: المارستانات: في أواخر القرن 6هـ/12م، ظهرت في المغرب وبالضبط في مدينة مراكش منشأة طبية عمومية بمبادرة من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي. ومن الغريب أن يتأخر ظهور البيمارستانات بالمغرب عن المشرق قرونا عديدة[24]، كما أنه من الغريب أن يظهر المارستان بعد رحلة ابن جبير بأربع سنوات والتي ورد فيها وصف دقيق للمارستان بالمشرق[25] وبني وفقا لما وصفه، فهل بين الأمرين علاقة مباشرة أم هي الصدفة فقط؟وكيفما كان الحال فبناء مارستان مراكش جاء تكريسا للنهضة الطبية في المغرب والأندلس في العصر الموحدي[26].

لما وصل المرينيون إلى السلطة توسعت حركة بناء المارستانات، وصارت مدن كثيرة تحتضن مؤسسات من هذا النوع ومنها: فاس ومكناس ومراكش وتازة وآسفي. ويظهر لنا ابن أبي زرع مدى عناية المرينيين بها عند حديثه عن يعقوب المنصور المريني حيث قال: "صنع المارستانات في بلاد المرتضى للغرباء والمجانين وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجونه من الأغذية"[27]. ونفس الاهتمام يبديه أبو الحسن المريني كما يثبت ابن مرزوق عندما كتب: "جدد إمامنا (رضه) رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها

(...) وكان لمولانا (رضه) بهذا أعظم اعتناء"[28]، وسار أبو عنان على نفس الخطوات إذ كان من أعماله "بناء المارستانات في كل بلد من بلاده، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم"[29]. وقد رفعت هذه العناية من عدد المارستانات وزادت من انتشارها في البلاد المغربية.

وتأخر ظهور المارستان في الأندلس حتى عهد بني نصر في القرن 8هـ/14م حيث بني أول وآخر مارستان في غرناطة[30]، وكان لتلمسان عاصمة بني عبد الواد في القرن 8هـ/14ممارستانها أيضا[31].

بصفة إجمالية فالمارستان مؤسسة طبية انطلقت في مراكش في عهد الموحدين ثم ما لبثت أن عمت كل المدن الرئيسية في البلاد، بل انتقلت إلى الجيران في الأندلس وتلمسان. فماذا نقصد بهذه المؤسسة وما هي أهم المارستانات بالمغرب والأندلس؟

البيمارستان كلمة فارسية مكونة من كلمتين: بيمار: مريض أو عليل، وستان: مكان أو دار، لتعني الكلمة كلها دار المرضى، واختصرت في المغرب والأندلس وصارت مارستان[32]. ويعالج المارستان كل أنواع الأمراض، لكنه مع تقدم التاريخ سيفقد هذه الخاصية ليقتصر على المجانين[33]. وسنعمل فيما يلي على التعريف بأهم المارستانات المعروفة في المنطقة خلال العصر الوسيط بناء على ترتيب زمني ينطلق من الأقدم نحو الأحدث وترتيب جغرافي يبدأ من المغرب الأقصى ويمربتلمسان وينتهي بالأندلس.

يعتبر مارستان مراكش المعروف بدار الفرج أول مارستان في المغرب، وقد بناه يعقوب المنصور الموحدي عام 585هـ/1189م[34]. وخلف عبد الواحد المراكشي أحسن وصف لهذا المارستان اعتمده أغلب من جاؤوا بعده من القدامى والمحدثين، لكن "صاحب الاستبصار" أورد معلومات طيبة عنه أيضا. وأول ما يواجهنا عند الحديث عن مارستان مراكش هو تحديد موقعه الذي يعتبر من الأشياء التي ما تزال غامضة حتى الآن. فصاحب الاستبصار يقول عنه إنه "في شرقي الجامع المكرم"[35]، وهذا تحديد غامض. وحاول دوفردان تحديد موقعه فافترض أنه يقع شرق مسجد الكتبية وجنوب القصبة[36].ويصف المراكشي موضعه كما يلي: "ساحة فسيحة بأعدل موقع في البلد"[37]. وقد بني المارستان وفقا للتصميم المرتكز على ساحة مركزية تحيط بها الغرف من جميع الجوانب[38]. وزينت البناية بالنقوش البديعة والزخارف المحكمة،

وفي وسط الساحة صنعت أربع برك إحداها بالرخام، وزود أيضا بالأغراس وقنوات المياه التي تمر بباب كل غرفة، وفرشت الغرف بفرش الصوف والكتان والحرير وغيره[39].وأعطي المرضى ملابس للصيف والشتاء وملابس النوم، وجلب الأطباء لصناعة الأدوية وعلاج المرضى، وخصص لذلك نفقات بلغت ثلاثين دينارا في اليوم[40].

وأسندت إدارة المارستان لطبيب المنصور أبي إسحاق إبراهيم الداني "أمين المارستان" الذي استمر في وظيفته حتى وفاته في عهد المستنصر وخلفه ولداه في الوظيفة[41].وفتح المارستان في وجه المرضى أغنياء وفقراء، لكن يظهر أن الأمر يتعلق فقط بالغرباء كما يفهم بوضوح من هذا الكلام للمراكشي "ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت"[42]، ويتضح من النص أنه لم يبن من أجل سكان المدينة بل للغرباء الذين لا يجدون من يعتني بهم أما المرضى المحليون فيمرضون في بيوتهم وسط عناية أسرهم. وبعد شفاء المريض إن كان فقيرا يحصل على مساعدة مالية تمكنه من استئناف حياته[43]. وربما؛ كان هناك فصل بين المرضى حسب جنسهم ومرضهم كما هو شائع بالمشرق[44].

والتزم يعقوب المنصور بزيارته كل جمعة والسؤال عن مرضاه ومراقبة الخدمات التي يقدمها القائمون عليه[45]. ويظهر أن المارستان توقف بعد المستنصر بسبب أزمة الحكم الموحدي واضطراب الأوضاع في مراكش.

في عهد المرينيين، صار المارستان الرئيسي في العدوة المغربية هو مارستان فاس المسمى **باب الفرج** لأنه يفرج كرب المرضى أو نسبة لأندلسي من بني الأحمر يدعى فرج والذي جدده بعد 900هـ/1494م[46]، أو سطو على اسم مارستان مراكش الموحدي ومحاولة لمحو ذكراه[47]. وقد بني على يد يعقوب المنصور المريني من أجل خدمة المرضى والمجانين[48].

ويقع قرب سوق العطارين وسوق الحناء من عدوة القرويين[49]. وقد أوقفت عليه الأوقاف وخصصت له الأموال لشراء الأدوية وإعدادها ومداواة المرضى ودفع أجور الأطباء على عهد السلاطين يعقوب المنصور وأبي الحسن وأبي عنان[50]. وفتح المارستان في وجه مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم يؤويهم وكذلك للمجانين[51].

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

ومن بين الشخصيات التي تولت الإشراف عليه والنظر في شؤونه محمد بن قاسم بن أبي بكر المالقي القرشي (ت757هـ/1356م) وكان تعيينه في ربيع الثاني من عام 754هـ/1353م، وهو كما يبدو من تكوينه ليس طبيبا فقد "كان لبيبا لوذعيا جامعا لخصال من خط وكتابة ونظم وشطرنج"[52]. وربما يحيل تولي غير الأطباء لتسيير هذا المارستان على بداية تدهور حاله. وقد وصفه الوزان في هذه المرحلة فذكر أنه صار خاصا بالمرضى الغرباء ولا يوجد به طبيب ولا يقدم أي علاج، وكل ما يحصل عليه المريض هو الطعام والسكن في انتظار شفائه الطبيعي أو أجله المحتوم، أما المجانين فيقيدون بالسلاسل والأغلال ويحرسهم حراس يضربونهم أحيانا لتهدئتهم، ويعتمد في نفقاته على صدقات أهل المدينة بعد أن باع أحد السلاطين المرينيين أحباسه[53].

وذكر الوزان أن فاس تحتوي على مارستانات أخرى داخل وخارج السور وكلها تعيش نفس أزمة **باب الفرج**[54].

كان لسلا مارستان ذكره ابن الخطيب عند حديثه عنها[55]، ووصفه ابن الحاج النميري بمناسبة زيارة أبي عنان للمدينة سنة 757هـ/1356م فقال: "فمبناه صحيح لا يفارقه عليل وقوي لا يريمه ضعيف مستنيل. فما شئت به من رفق يتمهد أكنافه، وتأنيس تتجدد ألطافه، وعلاج تتورد قطافه، وتدبير يحسن مرتفعه ومصطافه، ويضرب بمدرجه الطرق طوافه، فلا سقيم إلا وحديث برئه ليس بالسقيم" ويضيف "ذلك المصنع الذي جاور البحر"[56]. وذكره ابن علي الدكالي متحدثا عن أبي عنان كما يلي: "وقد بنى بمدينة سلا المارستان العجيب وسط حارة اليهود من حومة باب حسين، وهو بناء حفيل مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى بها، وأجرى له الماء لشدة الحاجة إليه من الماء الداخل على سور أبيه. وكان محل هذا المارستان فندقا للزيت قديما (...) فبنى أبو عنان به المارستان المذكور، وعين له أطباء مهرة من الذين يعانون العلم قراءة وعلاجا. وكان مرتبا لهم الجرايات والصلات على ما يعانون (...) ولما تقهقر حال الدولة المرينية (...) بطل العطاء وانقطع الإمداد فهجر المارستان لذلك"[57]، وتبين هذه الأوصاف أن هذا المارستان كان فخما مجهزا بأحسن

الوسائل من بناء وأطباء وأوقاف مما ساعده على القيام بمهمته في العلاج، ولما توقف الدعم بضعف المرينيين تعطل كما حصل لمارستان **باب الفرج**.

وكان بمكناسة أيضا مارستان هجر في عهد السلطان أحمد بن أبي سالم المريني (776-786هـ/1375-1385م)[58].

وذكر ابن الخطيب أن مدينة آسفي تتوفر على مارستان وأن المشرف عليه هو الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري[59].

وأتى أبو يحي ابن خلدون على ذكر مارستان تلمسان عند حديثه عن مجاعة 776هـ/1375م، ذلك أن الأمير البني عبد الوادي جعله ملجأ لأهل البادية الذين طردهم الجوع نحو مدينة تلمسان وتكفل بالإنفاق عليهم حتى زوال المحنة وعودة الخصب[60].

لقد انتشرت المارستانات بمختلف مدن المغرب بداية من العهد الموحدي ثم توسعت في عهد المرينيين حيث وجدت بمدن فاس وسلا ومكناسة وآسفي وتلمسان وكلها تعالج المرضى الغرباء والمجانين، وعند ضعف الدولة المرينية تدهور حالها وتحولت إلى ملاجئ للمرضى الغرباء وسجونا للمجانين تعيش على إحسان أهل البر.

في العدوة الأندلسية، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، تأخر ظهورها حتى القرن 8هـ/14م، بالرغم من أن لوكليرك ذكر وجود مارستان بالأندلس وبالضبط بالجزيرة الخضراء منذ بداية القرن 7هـ/13م بمناسبة حديثه عن أبي إسحاق الداني وابنه[61].لكن يبدو أنه أخطأ في قراءة عبارة وردت في كتاب "عيون الأنباء" تقول عنه "كان أمين المارستان وطبيبه بالحضرة"[62] فقرأ الحضرة (العاصمة مراكش) الخضرة معتقدا أنها تعني الجزيرة الخضراء. وقد ظهر المارستان فعلا في غرناطة في عهد الأمير محمد بن يوسف بن فرج بن إسماعيل الغني بالله المعروف بمحمد الخامس (تولى الحكم عام 755هـ/1354م). ويحتفظ الإسبان في قصر الحمراء بلوحة رخامية على شكل باب بأقواس تخلد بناء هذا المارستان[63]. وورد في وصف ابن الخطيب له ما يلي: "... فخامة بيت، وتعدد مساكن ورحب ساحة، ودرور مياه وصحة هواء وتعدد خزاين ومتوضآت، وانطلاق جراية، وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر بالساحة العريضة والأهوية الطيبة وتدفق المياه من فوارات المرمر وأسود الصخر وتموج البحر وانسدال

الأشجار"[64]. ويكشف النص عن الاختيار الجيد للموضع والمباني الكثيرة والجميلة والساحة الرحبة والأشجار الكثيفة والمياه المتدفقة والنفقات المتواصلة، وهذه خصائص وجدناها في مارستانات مراكش وفاس وسلا.

وتشير رخامة البناء إلى أن هذا العمل يعتبر سابقة في الأندلس إذ هو "حسنة لم يسبق إليها من لدن دخول الإسلام هذه البلاد واختص بها"[65]، وهذا يؤكد خطأ لوكليرك الذي أشرنا إليه أعلاه. وقد بدأ بناؤه في العشر الأواسط من شهر المحرم عام 767هـ/1366م وانتهي منه في العشر الأواسط من شهر شوال من عام 768هـ/1367م[66]، وبذلك يكون بناؤه قد استغرق واحدا وعشرين شهرا. وخصص لعينة محددة من المرضى حيث إن الأمير "أمر ببناء هذا المارستان رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين"[67]. وحول بعد سقوط غرناطة إلى دار سكة بعد تغيير معالمه[68].

لا يختلف مارستان غرناطة عن باقي مارستانات المغرب لا في بنائه ولا في وظيفته والعينة التي يخدمها، ويرجح أنه نابع من فكرة مغربية فالغني بالله بناه بعد فترة النفي التي قضاها بفاس، وتعرف؛ دون شك، على مارستانباب الفرج فأعجبه ولذلك بنى واحدا مشابها له في حضرته.

لقد ظهرت المارستانات كمؤسسة طبية عمومية منذ نهاية القرن 6هـ/ 12م، فتوجهت نحو خدمة المرضى الغرباءوالفقراء والمجانين منأولئك الذين لا يجدون أسرا تعتني بهم؛ إما لأنهم بعيدون عنها أو لأنهم يشكلون خطرا على أفرادها، وبذلك تكون وسيلة اخترعها المجتمع لاحتضان جزء من مرضاه ممن لا يجدون من يعتني بهم. فالمارستان من هذا المنظور مؤسسة بر وإحسان تشبه في وظيفتها الزوايا التي استحدثت في هذه الفترة لإيواء الغرباء من الأصحاء. وقد ارتبط وجود هذه المؤسسات بالسلطات القائمة فكلما كانت قوية زاد دعمها لها وازدهرت، وكلما ضعفت ذبلت وسقطت في الإهمال كما حصل في نهاية العصر الوسيط عندما تحولت إلى مجرد ملاجئ للمرضى والمجانين لا توفر أكثر من المأوى والأكل.

خاتمة: عرفت مؤسسات العلاج في المغرب والأندلس الوسيطيين تطورا تدريجيا إذ انتقلت من أماكن مغلقة وشديدة الخصوصية وهي منازل الأطباء ومصحات القصور

إلى مصحات عمومية تنتشر في الأسواق والشوارع؛ منذ القرن 5هـ/11م، تفتح في وجه الناس جميعا ويسهل الوصول إليها. وهي تعكس بوضوح مدى تأثير الطبفي عمارة المدينة المغربية الأندلسية. ودعمت منذ القرن 6هـ/ 12م بظهور المارستانات ذات الطابع العمومي والتي خصصت لغرباء وفقراء المسلمين ومجانينهم ممن لا يجدون من يعتني بهم، وبذلك يحقق المجتمع الرعاية والاحتضان لكل أصناف مرضاه.

الهوامش:

1- ابن جلجل، طبقات الأطباء،تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص.97 وابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر، بيروت، 1956، ص.66.--2- ابن الفرضي عبد الله بن محمد الأزدي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، مطبعة المدني، القاهرة، 1988، ج2، ص.185-186.---3- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج1، ص.438 وابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1964، ج1، ص.123.---4- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج4، ص.43-44.

5- ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحسيني، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1955، ج1، ص.140 وابن القاضي، جذوة الاقتباس، دار المنصور، الرباط، 1973، ص.88.---6- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، تقيق تحت إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج8، ص.319.---7- دندنش عصمت، الأندلس في نهاية المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص.188.---8- السقطي، آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنصال، المطبعة الدولية، باريس، 1931، ص. 44.---9- ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، ص.554.---10- ابن عبد الملك، الذيل، دار الثقافة، بيروت، ج1 قسم2، ص.513 وابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص.121 وابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج3، ص.133.

11- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج1، ص.208.

12- مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ص.52.---13- نفسه.

14-نفسه، ص.53.---15-الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمه محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983. ج1، ص.242-243.---16-ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربية، بيروت، 1973، ج2، ص.15.

17-انظر كتابنا "الموقف من المرض"، مطبعة مانيباال، بني ملال، 2007، ص.87. ---18-ابن جلجل، المصدر السابق، ص.113 وابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج3، ص.68.---19-نفسه--- 20-ابن بسام، المصدر السابق، ج1ن ص.51.

21-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج3، ص.128.---22-نفسه.---23-نفسه، ص.130.---24-كان الفارق الزمني بين ظهورها في المغرب وظهورها في المشرق حوالي أربعة قرون لأنها أنشئت غي المشرق منذ بداية القرن 3هـ/9م وتوسعت في القرن الموالي بشكل كبير. انظر LECLERC; L., Histoire de la médecine arabe, Imprimerie Fedala, Mohammadia, 1980; p.559.--- 25-ابن جبير، رحلته، دار بيروت، بيروت، 1959، ص.26.---26-الموقف من المرض، ص.87.---27-ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.91.---28-ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص.415.---29-ابن بطوطة، تحفة النظار، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997، ج4، ص.200.---30-ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص.50-51 وأحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، دار الرائد العربي،بيروت، 1981، ص.288.

Lévi-Provençal, E., Histoire de l'Espagne musulmane, éd. Maisonneuve, Paris, 1953, t3 ; p.434.

31-ابن خلدون يحي، بغية الرواد، المطبعة الشرقية، نشر ألفرد بيل، الجزائر، 1911، ج2 قسم 1، ص.326.---32-عيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.4 والبستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، ص.846.---33-نفسه، ص.4.---34-الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، دار القلم، بيروت، 1976، ص.541.---35-مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص.210.

36-Deverdun, G., Marrakech des origines jusqu'à 1912, éd. Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1959, t.1, p.245.

37-المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص.411.

38-Deverdun ; G ; op. cit.; t.1 ; p.245

39-المراكشي، المصدر السابق، صز411-412.---40-نفسه، ص.412.---41- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج3، ص.128 وعيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.282

Deverdun, G., op. cit., t.1, p.246.

42-المراكشي، المصدر السابق، ص، 412.---43-نفسه.

44-Deverdun, G., op. cit., t.1, p.247.

45-المراكشي، المصدر السابق، ص، 412.---46-عيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.285.---47-يجد هذا الافتراض شرعيته في كون المرينيين سطوا على كثير من إنجازات الموحدين وقلدوها في جميع الميادين.---48-لاحظ إدخال علاج المجانين في وظيفة المارستان وهو ما لم يذكر عند الموحدين، وهذه بداية انتقال وانزلاق لوظيفة المارستان، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1973، ص.298.---49-عيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.284.---50-ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.298 والذخيرة السنية، ص.91 والنميري، فيض العباب، الرباط، 1994، ص.17، وتوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط حوالة أحباس المارستان وفيها يظهر العدد الضخم من الأحباس التي جمعها عبر العصورمنذ نشأته حتى الفترة المعاصرة. انظر ميكروفيلم رقم 137.---51-عيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.284 وابن أبي زرع، الأنيس، ص.298 وابن مرزوق، المصدر السابق، ص.116.---52-ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص.303.---53-الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص.227-229.---54-نفسه، ص.227.

55-ابن الخطيب، معيار الاختيار، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة أكدال، الرباط، 1977، ص.74.---56-النميري ابن الحاج، فيض العباب، تحقيق محمد بن شقرون، دارالغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص.43.---57-ابن علي الدكالي، الاتحاف الوجيز، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، ص.61.---58-ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.124.---59-ابن الخطيب، نفاضة الجراب تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ج2، ص.72-73.---60-أبو يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص.326.

61-LECLERC, L., op. cit., p.559

62-ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، د3، ص.128.

63-Lévi-Provençal E., Inscriptions arabes de l'Espagne, éd. Larousse, Paris, 1931, pp.164-165.

64-ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص.50-51.

65-Lévi-Provençal E., op. cit., p.165---66-Ibid.---67-Ibid.

68-عيسى بك أحمد، المرجع السابق، ص.289.